

أثر الرحلة في نفسى

بقلم المربي الكبير
الاستاذ أحمد بك فراهى العمروسى
ناظر مدرسة المعلمين العليا



ذلك رجل كله صفاء نفس ، وسمو روح ، وثقافة عالية ، وعلم جامع ، وأعنى به الاستاذ الكبير العمروسى بك ، الذى عليه تخرج أكثر أساتذتنا المنتشرين فى المعاهد العلمية ، بل والكثيرون ممن يتولون مناصب القضاء فى مصر . ما زلت أذكر — والذكرى قطعة من حياة المرء — ذلك المربي العظيم ، وقد مر من ١٢ عاماً على مدرستنا للتفتيش — أيام كنت أطلب العلم — وكانت الحصص حصصاً طيبة ، وكان أن أخطأ المدرس فقدمنى إليه كأنى نموذج (للفصل) الذى كنت الأول فيه ، وقد نسي المسكين أنى كنت وعلمه على طرفى قبيض فسألنى العمروسى بك سؤالاً أذكر أنى اندفعت بسرعة فى الرد عليه ، فابتسم وقال : أنت تحسن

اللقاء ولكنك لا تحسن علم الطبيعة ، فدع هذا للخطب والمظاهرات ، وأنى أن يتركنى حتى فهمنى الجواب ، وفى ذلك من العبرة والعظة ما فيه لقوم يتصدرون للتعليم . المحرر إن للشرق لمجداً ، وإن للشرق حضارة ، يالها من مجد وحضارة ، ولكنهما تحت أجنحة التاريخ لم ترتفع عنهما ، وفى طيات الماضى لم تفتح دوتهما . ومن للشرق غير أبناء الشرق ، يبعث تراثه ، ويباهى بفخاره حتى يشع نوره ، ويقض ينبوعه ، فيكون كما كان فى الماضى قروناً طويلة ، وحيث لم يك شئ . وكان هو كل شئ . : مبعث النور والعرفان ، ومنبع الفيض على الانسانية والاحسان . وهل إلى ذلك من سبيل قبل أن يتعرف أبناؤه بعضهم بعضاً تعرف أفراد الأسرة الواحدة ، فيوحدوا الجهود ، ويسيروا معاً إلى الغاية ؟ وهل من وسيلة إلى التعارف بغير السياحة والرحلة ، يكون فيها اللقاء وبث الشكوى والألم والتشاور فى النجاة وكيف يكون تحقيق الأمل ؟ إني لأدين بها كوسيلة تنعدم بدونها الغاية وتقل المعرفة ، وتضيع ثمرة الاشتراك والتعاون ، وإني لمحدثكم :

أتاحت لى الظروف — وكم لها من حسنات — أن أرحل إلى بلاد مراکش (المغرب الأقصى) سنة ١٩٢٢ وأنا إذ ذاك خالى الوفاض من كل معرفة بها ومعلومات عنها ، وكانت هذه أول

رحلة لى إلى غير الأقطار الأوربية ، فتعرفت برجالاتها ، ووقفت بالمعاشرة على عاداتها ، ومدنيتها وأخلاقها ، وأبصرت الأشياء هنالك مرأى العين لا بالقراءة ولا بالسمع ، فبلغ منى العجب والدهشة بمدينة « قاس » العاصمة القديمة لتلك البلاد - ذات التقديس والجلال من بينها - مبلغاً لم يصله عجب قبله .

رأيت مدينة قائمة في خور من الأرض على شكل مخروط ، تنخفض قرارته عن أطرافه نحو الخمسين متراً ، وفي تلك القرارة مسجد بانها مولاي إدريس بن إدريس ، مؤسس دولة الإدارة بالمغرب على عهد هارون الرشيد ، وإلى ذلك المسجد تنتهي جميع شوارعها منحدرة من جميع جهاتها ، ولا يكاد أكر شارع بها يتسع إلا لراكب وراكب . ومع ذلك شهدت في بيوتها من الفن العربي والحضارة الإسلامية ما جعلني أعود بعقيدة جديدة عن عظمة آبائنا ومجد أسلافنا ، فأتلى لذلك ثلاث محاضرات بدار الجمعية الجغرافية الملكية ، نشرت بمجلة الرابطة الشرقية في العام الماضي ، وأنا مغتبط كل الاغتباط بتلك الرحلة السعيدة التي علمتني ما لم أكن أعلم ، وما لم يك في مقدوري بدونها أن أعلم ، وجعلت لى معارف وإخواناً أذكر منهم على سبيل التمثيل أبا منوأي ، السيد الطيب المقرئ ، نجل صاحب الدولة الحاج محمد المقرئ الصدر الأعظم لتلك البلاد ، وهو الآن حاكم مدينة الدار البيضاء . وإني لشيق أن أرى من حضراتهم في مصر زائراً أرد في شخصه بعض ما نالني من حفاوة وإكرام في تلك البلاد التي أصبحت منذ الرحلة معنيّاً بأمرها ، شغوفاً بالوقوف على أحوالها ، متمنياً واحداً عن خدمة أودبها لها ، أو لمجدنا العام بالاشتراك مع أهلها .

عزمت وأنا هناك عزيمة ، لا رجعة عندي فيها ولا حل لى منها ، أن أواصل رحلاتي إلى الأقطار الشرقية ، فقصدت في السنة التالية إلى لبنان وجلت في ربوعه ، فأدركت كم من منافع يجنيها من مصر ، وتجنيها مصر منه ، لو عمل أبناءها على شد أو أصر القربى ، وتنظيم تبادل المنافع ، حتى لكان الله جلّت قدرته أودع في كلا القطرين ما هو نكالة لأخيه جواً وتاجاً . ثم بمعت دمشق فإذا هي صفحة نثار للدولة الأموية تريد من ينفض عنها غبارها ويجلو صداها . وفي زيارتي للمسجد الأموي بها تذكرت قول المأمون وقد زاره مع جمع من عطاء مملكته سألهم محاسنه ، فكل ذهب إلى جهة من الحسن لم تصب منه مقمناً ، فقال هو : « إن الذي يعجبني منه أنه بني على غير مثال عرف »

وحقاً لقد بلغ العرب في فن العمارة والزخرفة هنا وهنا درجة غطت على ما كان لغيرهم ، وقصرت عليهم فنّاً طبع بطابعهم ، وعرف باسمهم ، أخضعوا فيه الزخرفة لغير التصوير ، فأتوا بالعجب العجائب . وقد ألفت عن هذين القطرين جملة محاضرات وضحتها بالقانوس السحري كما فعلت آنفاً عن المغرب . وكذلك زحلت إلى فلسطين ، فطفت مشهورات نواحيها ، وتاملت محاسن معبدها مهبط

الوحي في القديم ، وحلّ التقديس من جميع الأديان ، وعدت فحاضرت عنها كما حاضرت عن سوريا ولبنان ، وفي نيتي إن شاء الله أن أواصل الرحلة — التي أراها الوسيلة للتعاون ، في الوقت الذي أرى التعاون فيه الأساس الصحيح لبناء رقينا وإقامة صرح عظمتنا — فأزور بغداد عاصمة دولة الرشيد التي بلغ اتساعها على عهده مبلغاً جعله يقول ذات يوم لسحابة أقلت ولم تمطر بساحته : « أمطري حيث شئت يأتني خراجك » كما يقول الانكليز عن ملكهم الآن « ملك لا تغيب عنه الشمس » ومن بعد بغداد أزور إيران ، فالأفغان ، فالهند فالسند ، فما وراء النهر فالتركستان ، حتى أكل مملكة الرشيد من الشرق ، كما بدأت بأولها من الغرب ، وأنشر عن كل ذلك من المعلومات ما يحفز الهمم ، ويحبب إلى النفوس إحياء الدارس من مجد الأول ، لعل بذلك أكون قد قضيت لهم حقاً ، وأدبت عنا واجبا .

تلك هي الرحلة وهذا رأي فيها ، وبصفتي من رجال التربية والتعليم أقول : إن العلم الصحيح الحى الطريف ، ليس في الكتب ولا في المذكرات ، وإنما هو في الحياة نفسها وفي التجربة والمعالجة ، فعلم الكتب وحده علم عقيم لا يتقف العقول ، ولا يهذب النفوس ، ولا يعد للمغامرة في الحياة ، وإنما يفيد إذا جاء متممًا لعمل الشخص نفسه للمراجعة والتحقيق ، ما مثل من يعتقد أن الكتب هي كل شيء في التعليم ، إلا كمثل من يعتقد أن الماء هو كل شيء في الزراعة ، وماذا يغني الماء إذا هطل على أرض لم يشقها محراث ، ولم تقلبها يد ، ولم تضربها فأس . أقول ذلك عن الكتب ، وأقوله عن تجربة ويقين ، بعد السياحات الطويلة التي قمت بها في السنوات الأخيرة في الشرق ، فإني رأيت فرقا هائلا بين ما علمته عن هذه البلاد بالمشاهدة والملابسة ، وبين ما كان عالقاً بذهني عنها من كتب الجغرافيا والتاريخ .

على أن الرحلة في ذاتها مفخرة من مفاخر الآباء والأجداد ، فكم جابوا من قفار ، وقطعوا من بحار ، وتعرضوا لأخطار ، وتركوا في ذلك من آثار ، في وقت كان السفر فيه قطعة من عذاب ، ليس له من مركب سوى ظهور الأبن وألواح الشراع ، وفي كليهما وماها فيه من قفر أو بحر ، التعب المضني والخوف المردى والبطء البطيء الذي تقصر فيه الأعمار . وتنتهي دونه الآجال ... أما أنهم — كان الله لهم — لو شاهدوا ما نشاهده الآن من تسخير البخار والماء ، والكهرباء والهواء ، مع ما يحوط ذلك من ترف ونعيم ، ومخاطبة على البعد بالسلك والسديم (اللاسلكي) لقضوا أعمارهم على الأرض مشيا في مناكبها ، وقطاعاً لنواحيها وجوانبها ، فما بالناس لا تشبه في ذلك بهم ، وتعمل مثل ما فعلوا في رحلهم وأسفارهم كما يفعل الأفذاذ القليلون منا : أمثال شيخ العروبة ، صاحب السعادة أحمد زكي باشا ، وصاحب العزة محمد بك البتنوني ، وغيرها ممن نسأل الله أن يبارك لنا في مجهودهم ، ويكثر فينا من أمثالهم إنه سميع مجيب .

أحمد فهمي العمروسي